

الفصل السابع

المقياس (هو التآليف بين الكم والكيف)

قلنا أن الكم تعيين خارج عن الموضوع المعين . أما الكيف فهو تعيين باطن يتحد مع الشيء المعين . فالتعيين الذاتي هو إذن خاصة الكيف لا الكم . وها نحن قد وجدنا التعيين الذاتي يظهر فى التقدم الكمى اللامتناهى ، وفى مقولة النسبة ، فالمقدار يتحول إلى مقدار آخر . وهذا الآخر يتحد مع الأول . فعلاقة المقدار الأول هى إذن علاقة مع الذات . إنه يعين ذاته . وظهور التعيين الذاتى هنا هو عودة الكيف مرة أخرى .

ففى النسبة $6 \div 3 = 2$ نجد أن الطرف $6 \div 3$ هو علاقة بين مقدارين ، فهو إذن كمى . ولكن الطرف الآخر من المعادلة وهو 2 يمثل مقدراً يعين ذاته بذاته . وذلك أنه تكون بانصهار المقدارين فى مقدار واحد . وهذا يعنى أن هذه العلاقة الذاتية هى علاقة كيفية .

ويمكن أن نصوغ ذلك على النحو التالى : نحن هنا بصدد موجود يعين ذاته ، والمتعين بذاته هو الوجود لذاته . والوجود لذاته مقولة من مقولات الكيف . فنحن هنا إذن بازاء تعيين كيفى . ونحن نستطيع أن نغير الطرف الأول من المعادلة دون أن نغير الطرف الثانى أو حاصل القسمة . فالطرف الأول يمكن أن يصبح $12 \div 6$ أو $120 \div 60$ ويبقى الطرف الثانى 2 دائماً ولكننا لا نستطيع أن نغير الطرف الثانى دون أن نعدل فى الوقت نفسه الطرف الأول من المعادلة فنحن لا نستطيع أن نجعله 3 بدلاً من 2 إلا إذا جعلنا النسبة $9 \div 3$. والتعيين الذى يتحد مع الوجود ويتغير بتغيره هو تعيين كيفى .

هكذا نجد فى النسبة مزيجاً من الكم والكيف . وقد رأينا فى الفصل السابق إن الكيف حين يأخذ شكل النبذ والجذب يتحول إلى كم . ونرى هنا أن

الكم بدوره حين يأخذ شكل النسبة يتحول من جديد إلى الكيف . والنتيجة هي كم
نو كيف أو وحدة الكم والكيف . وها هي مقولة جديدة أو دائرة جديدة . إنها
دائرة المقياس . فالمقياس هو التآليف بين الكم والكيف .

إن معنى المقياس عند هيجل يشير إلى معنى التوازن والتناسب .

فاذا تغيرت النسبة بين أضلاع المربع كَفَّ الشكل عن أن يكون مربعا ، وفي
الكيمياء نعرف أن الماء مركب من أوكسجين وهيدروجين بنسبة ١ : ٢ . فإذا
أصبحت هذه النسبة ١ : ١ حصلنا على شيء آخر غير الماء إطلاقا . وهكذا
نستطيع أن نعرف المقياس بأنه تعلق الكيف بالكم أو بأنه كم يتعلق به الكيف .
وكذلك إذا زاد الاقتصاد عن حد (مقياس) معين أصبح بخلا وإذا زادت حرارة
الماء عن حد معين انقلب إلى بخار فالكيف هنا يتعلق بكم الحرارة .

إننا في جميع هذه الحالات نجد إن الكيف يتعلق بالكم . وهذا هو معنى
المقياس عندما صادفنا الكم لأول مرة في الجدل بدا لنا غريبا عن الكيف . فقد
عرفناه كتعيين خارج عن وجود الشيء . إنه يمكن أن يزيد أو ينقص دون أن يغير
من كيف الشيء ، ولكن الجدل هنا يبين لنا أن الكم والكيف ، لا ينفصلان ، فكل
منهما إذا أخذ منفصلا يصبح تجريداً . ومن هنا تعريف هيجل للمقياس بأنه
المقدار الكيفي .

المقياس ، وشأنه في ذلك شأن سائر المقولات تعريف للمطلق . وقد لاحظ
هيجل أن الله قد نظر إليه على أنه مقياس جميع الاشياء . وتقع دائرة المقياس
في ثلاث مقولات :

١ - المقدار النوعي .

٢ - اللامحدود .

٣ - لا تنهاى المقياس .

١ - المقدار النوعى

المقياس كما قلنا هو وحدة الكم والكيف . ولكن هذه الوحدة تبدو لنا أولاً وحدة مباشرة ويقصد هيجل بالمباشرة هنا عدم وجود وساطة حقيقية بين الكم والكيف . فإحالة كل منهما الى الآخر أو تعلق كل منهما بالآخر . إنما هو نسبي فقط . فليس بينهما تعلق مطلق كما سنجد ذلك فى دائرة الماهية بين الموجب والسالب ، أو بين العلة والمعلول حيث لا يكون هناك معنى للأول بدون الآخر . ولهذا يقول هيجل إن الوحدة بين الكم والكيف هى وحدة مباشرة . اما الوحدة الكاملة فتعنى أن أى تغير فى كم الشئ يتبعه تغير فى كيفه . والوحدة المباشرة هنا تعنى أن الكيف يتعلق بالكم إلى حد ما . أى أن الكم يمكن أن يتغير ضمن حدود معينة دون أن يؤثر ذلك على الكيف . فالرابطة هنا ضعيفة . وهذا ما يقصد بالاختيار النوعى .

وأقرب مثال على المقدار النوعى فى الطبيعة هو تحول الماء إلى جليد أو بخار . فهناك نوع معين أى $^{\circ}100$ تزلو بعدها سيولة الماء . فمقدار الحرارة يمكن أن يتغير حتى يصل إلى $^{\circ}100$ دون تغير فى الكيف . وبعد هذه الدرجة تزلو السيولة من الماء ويتحول إلى بخار . وكذلك فان المقدار النوعى لتحول الماء الى جليد هو درجة الصفر .

ب - اللامحدود

إن الانتقال من المقدار النوعى إلى اللامحدود يتم على النحو الآتى : قلنا إن وجود كيف معين يتعلق بحد كيفى لا نتجاوزه . ولكننا رأينا أن المعنى الحقيقي للكم يتضمن أن الكم يجب أن يتجاوز نفسه وأن يتجاوز كل حد . فالمقدار النوعى فى دائرة المقياس يجب إذن أن يتجاوز . وإذن لابد للكيف المتعلق به أن يزول . ففى مثال الماء نجد أن كيفا جديدا يتبع الأول أى أن البخار يتبع السيولة ، ولكننا لم نستنبط هذا استنباطاً منطقياً ، إلا أن قولنا بان الكم يجب أن يتجاوز ذاته يعنى أن الكيف يجب أن يزول . وهكذا نجد أمامنا مرة أخرى كما مستقلاً لا

يرتبط به كيف . وبما أن المقياس هو ارتباط كيف بكم . فإن هذا المفهوم الجديد للكم الذي ترك الكيف وراءه وأصبح غير مرتبط به يسمى عند هيجل باللامحدود أو بعديم القياس .

ج - لا تنهى القياس

نحن الآن بصدد كم مستقل عن الكيف . ولكننا رأينا أن مثل هذا الاستقلال ليس سوى تجريد . فالكم المحض لا بد أن يعود إلى الكيف إن هذا الكم الحر إذا هذا اللامحدود سيصبح كيفاً مرة أخرى، وارتباطه بالكيف هو أيضاً مقياس . وهكذا يتحول اللامحدود إلى مقياس . وتشاهد ذلك في عالم الطبيعة عند ظهور كيف جديد بعد أن يتجاوز المقدار النوعي حداً معيناً ، فعندما تبلغ حرارة الماء ١٠٠° تختفى سيولته . وهذا يعطينا اللامحدود لأن الحرارة يمكن أن ترتفع إلى ما لا نهاية فوق ١٠٠° دون أن ترتبط بسيولة الماء . ولكن تحول اللامحدود إلى مقياس مرة أخرى يشاهد عند ظهور كيف جديد هو البخار، فاللامحدود هو نفسه مقياس . والمقياس يتحول إلى لا محدود . هذا اللامحدود الجديد يتحول إلى مقياس وهكذا إلى ما لا نهاية . وهكذا نكون بصدد سلسلة لا متناهية أو بصدد لا متناه كاذب مواز للامتتاهي الكاذب الذي رأيناه في دائرة الكيف وفي دائرة الكم . والوصول إلى اللامتتاهي الحقيقي يتم هنا بعودة المقاس إلى نفسه . هذا اللامتتاهي أو هذا الوجود لذاته هو ما يسمى بلا تنهى المقياس .

ويمكن الآن أن نلخص جدول المقولات في القسم الأول من المنطق ، أى مقولات الوجود ، على النحو التالي :

